ISSN Online: 2709-7625
ISSN Print: 2709-7617
Vol.4 No.4 2021

دراسة وتحليل فني لقصائد مختارة في المراثي العربية الباكستانية

د. فخر الزمان
أخصائي التخصص مجلس الكتب المنهجية بالبنجاب ، لاهور
د. نجمة ناهيد
مدير اكاد مية القا ئد الاعظم لتطوير التعليم ،تله جنج، جكوال

ABSTRACT

Arabic literature had been rich with elegic poetry since pre-Islamic times. ELEGY which is poetry of mourning has been genre of great many numbers of literary intellectuals of the Subcontinent. Their piece of writing is enriched with excellence of Arabic language. This paper aims at giving the true picture as what are the qualities of Arabic Elegy writing in Pakistan. At its very outset, origin of elegy writing is traced briefly, then it proceeds towards giving details of major topics of Arabic Elegy writing in Pakistan, in which topics are dealt with considering their importance into account as well as certain other aspects, adopting pragmatic, cosmic, scholastic and realistic approach. Elegies written in Pakistan are of wide range taken with respect to topics. Elegies are written on the death of near and dear ones, especially of parents , teachers, spiritual leaders , and other close relatives as well as on the demise of friends. Elegies are also written for showing grief on religious leaders (on their demise) as well as for paying tribute to them

Keywords: *Elegy Writing,Arabic Literature, Scholastic, Sub Continent.*

عندما دخل الشعر العربي في شبه القارة الهندية فدخل بأصنافه الذاتية، مثل المدح، والهجاء، والرثاء، والغزل، والرجز وغير ذلك. وكما نعرف أن أهم العماد للشعر العربي هو المدح والرثاء، وليس من الممكن أن يكتمل الشعر العربي بدون المدح والرثاء.

الرثاء:

الرثاء من فنون الشعر القديمة، الذي ارتبط بوجود الإنسان على هذه البسيطة منذ أن وجدت الحياة، ووجد مع الحياة الموت، وطالما بكى الإنسان وصاح على من ذهب من أقاربه وأحبابه، فالموت من الظواهر التي هزت الشعراء وحركت عواطفهم فبكوا، واستبكوا، وناحوا على الحبيب المفارق ومنهم من بكى وشجا بأعلى صوته كالخنساء، ومنهم من بكى وتأمل كأبي ذوئيب، ولكل شاعر مذهبه من النوح والبكاء وسبيل الرثاء أن يكون ظاهر التفجع بين الحسرة مخلوطا بالتلهف والأسف والاستعظام.(1)

يرى الأستاذ أميل ناصف أن الرثاء فن من فنون الشعر الغنائي يعبر فيه الشاعر عن حزنه وتفجعه لفقدان حبيبه، وهو يتلون بألوان مختلفة تبعاً للطبيعة والمزاج والمواقف، فإذا غلب عليه البكاء على الراحل وبث اللوعة كان ندباً، وإذا غلب عليه تسجيل الخصال الحميدة التي تمتع بها الفقيد في حياته كان تأبيناً، وإذا غلب عليه التأمل في حقيقة الموت والحياة كان عزاء، وقد يجتمع الندب والتأبين والعزاء في القصيدة الواحدة.(2)

يدل هذاالشعر على قوة اللغةالعربية عند هؤلاء بعكس شيوخ اليوم، لأن المناهج في تلك الأيام ربما كانت أقوى، وربما كانوا جادين في تحصيل العلوم وخاصة العلوم العربية وإن كان أكثر شعرهم محاكاة للأقدمين ولكنه قوي ومتماسك، وليست فيه أخطاء نحوية أو صرفية، وهذا دليل قوة لغتهم.

سنقوم في هذا المقال بدراسة نقدية للقصائد المختارة لشعراء الرثاء في باكستان، والتعليق عليها، حتى أكشف عن خصائص شعر الرثاء في هذه المنطقة مقارنة بشكل عام بما كتب في الشعر العربي – في هذا الغرض – في البلاد العربية، حيث سأشير إلى الصور الفنية البلاغية والأساليب والأوزان والبحور التي اختارها الشعراء في هذه القصائد.

قصيدة أبو العطاء السندي في رثاء يزيد بن هبيرة:

للرثاء نصيب الأسد من الشعر العربي في شبه القارة، لأن شعراء العربية في هذه المنطقة كان أغلبهم شيوخ وعلماء، وكانوا يحترمون أساتذتهم إلى درجة التقديس، وإذا ما توفي أحد الأساتذة رثاه تلامذته، ولذلك كان الرثاء هو الغالب في الشعر العربي في شبه القارة. اخترت قصيدة أبي العطاء السندي للدراسة الفنية والتعليق عليها، حيث قال في رثاء يزيد بن هبيرة بعد أن قتله الخليفة العباسي أبو جعفر منصور:

الا إن عينا لم تجد يوم واسط	عليك بجاري دمعها لجمود
عشية قام النائحات وشققت	جيوب بأيدي مأتم وخدود
فإن تمس محجور الفناء فربما	أقام به بعد الوفود وفود
فإنك لم تبعد على متعهد	على كل من تحت التراب بعيد(3)

دراسة فنية

قول أبي عطا السندي في رثاء يزيد بن هبيرة:

عشية قام النائحات وشققت جيوب بأيدي مأتم وخدود

في هذا البيت (عشية) ظرف الزمان الذي قدم وهو وقت العشاء يفيد القصر والتخصيص من جهة البلاغة كما هو يقول: إن النساء بدأت النوح وشققت جيوبهن بأيديهن. هذا يدل على شدة الحزن والبكاء على الفقيد. وقوله:

فان تمس محجور الفناء فربما أقام به بعد الوفود وفود

(محجور الفناء) أي الساحة الموحشة والبيت الفارغ الذي ليس فيه السكان، يعبر الشاعر أن بموت الفقيد ذهب كل الرونق والسرور عن هذا البيت والمنزل فهو يقول لعله يأتي الوفود بعد هذا الوفد بصورة الفقيد الذي هجر وذهب عن هذاالبيت. وقوله:

فإنّك لم تبعد على متعهد آلا كل من تحت التراب بعيدُ

يقول في هذا البيت أن الذي أصابه المنية ودفن تحت التراب وهو بعيد ولا يمكن الوصول إليه. كلام سليس وعذب والتعبيرات لجميلة كما أنه شاعر وحيد عجمي الذي أدخل كلامه في ديوان الحماسة عند العرب.

الدراسة الفنية لقصيدة طلاء محمد خان البشاوري في الرثاء

أرى حبل عمري بغتة في تصرم ونار الهوى في القلب ذات تضرم

فقلت لقلبي ما دهاك مصيبة أراك حزينا هائما كالمتيم

لماذا دموع العين أضحت سواكبا أصابك هم أم رميت بأسهم

لماذا عيون القوم ظلت بواكيا لماذا رياح الفوز لم تتنسم

فقال فؤادي قد رزئنا لبيد حصور صبور ذي اقتدار مكرم[4]

هذه قصيدة أبي الأسلم طلا محمد خان البشاوري في رثاء الإمام عبدالله الغزنوي (من بحر طويل) وهذه القصيدة في أسلوبها هو الصدى الحقيقي تقوى المشاعر والعواطف والانفعالات، فأبيات هذه القصيدة تضمنت أفكارا كثيرة وعواطف صادقة متعددة التي تؤثر في النفوس تاثيراً بالغاً واستحوذت عليها كما أن ألفاظها الجزيلة والعبارات الرصينة المنسجمة والأساليب الشامخة هذه اللبنات اللفظية التي شيد منها صرحه الأدبي فهي جميعها تتمتع بالنقاء والجلاء والجزالة والدقة والإحاطة بالمعنى كما الشاعر في هذه المرثية لم تخنه قدرته الفنية على تجويد الرصف وحسن التأليف بين مفرداتها فجاءت هذه التراكيب مترابطة قوية واضحة يغلب عليها الإيجاز غير المخل كما تنهض فيها الإستعارات والكنايات والمجاز والتجسيم والتشخيص إلى جانب الحقيقة فلنقر أ قوله:

أرى حبل عمري بغتة في تصرم ونار الهوى في القلب ذات تضرّم

يقول الشاعر أنه يرى إلى حبل حياته كأن في التصرم ونار الهوى الذي اندلع في قلبه ذات الشدة بسبب الحزن والبكاء على الفقيد. وهناك مجاز لغوي لأن حبل الحياة ليست في الحقيقة ولا يكون حبل الحياة في الحقيقة ويمكن هذا مجازاً. وقوله:

فقلت لقلبي ما دهاك مصيبة أراك حزينا هائما كالمتيم

وهو يتكلم عن نفسه فيسأل عن قلبه ما دهاك أي أيّ مصيبة أصابتك فصرت حزينا بها (والهائم) الفاقد المجنون الذي يمرّ على الشوارع بالجنون (كالمتيم) فيه التشبيه بالتيم. وقوله:

لماذا دموع العين أضحت سواكبا أصابك هم أم رميت بأسهم

في هذا البيت يسأل الشاعر أيضاً عن قلبه في تخيله يا قلبي أخبرني سبب الدموع التي تسيل عن العين هل أصابك همّ وحزن أم احدر مني عليك الأسهام مثل هذه التعبيرات تدل على شدة حزن الشاعر وبطائه على الفقيد. وقوله:

لماذا عيون القوم ظلّت بواكيا لماذا رياح الفوز لم تنسم

يقول الشاعر لماذا أرى عيون الناس ما زالت باكية ولم تتوقف عن البكاء ورياح الفوز والنجاح لا تكون لذيذة وحلوة أي لا تجري كريح الصباح المبكر يسمى النسيم وهذا أيضاً يدل على شدة حزن الفقيد. وقوله:

فقال فؤادي قد رزئنا لبيد حصور صبور ذي اقتدار مكرم

أجابه قلبه أن أصبنا وابتلينا بموت سيدنا الذي كان صبورا وحصورا وذا اقتدار مكرم ومعظم. فنرى أن الألفاظ عذبة والتراكيب منسجمة والتعبيرات جميلة.

- ولا شك أن الأسلوب إنما هو الصدى الحقيقي تقوى المشاعر والعواطف والانفعالات التي يعبر عنها وهذه الأبيات قد تضمنت أفكارا كثيرة وعواطف صادقة متعددة التي تؤثر في النفوس تاثيراً بالغاً واستحوذت عليها.
- الألفاظ والتراكيب:

أن الألفاظ الجزالة والعبارات الرفيعة المنسجمة والأساليب الشائعة.

هذه اللبنات اللفظية التي شيد منها صرحه الأدبي فهي جميعها تتمتع بالذقاء والجلاء والجزالة والدقة والإحاطة بالمعنى.

- جمال البناء:

فالشاعر في هذه المرثية لم تخنه قدرته الفنية على تجويد الوصف وحسن التأليف بين مفرداتها فجاءت هذه التراكيب مترابطة قوية واضحة يغلب عليها الإيجاز غير المخل كما تبض هذه المرثية على الاستعارات والكنايات والمجاز والتجسيم والتشخيص إلى جانب الحقيقة والتقرير.

أصغر علي الروحي[5]

وله قصيدة تالية في تاريخ وفاة الخواجا محمد غوث الجشتي رحمه الله:

ألا يا عين بكي كالسحاب أذاك النوم ملاك في المصاب

فبكى ما استطعت اليوم حزنا على الحر الحريق المستطاب

لقد عز المزار فلست أشكو إلى من ما تمسك بالإياب

(محمد غوث) سلطان المعالي إمام الأصفياء بلا ارتياب

فأظلمت الشرائع يا لبؤس ولاحت قبل ذا مثل الشهاب[6]

فقد رسم الشاعر صورة رائعة فيها وأضاف إليه كثيراً من صفاته الطيبة نحو:

محمد غوث سلطان المعالي إمام الأصفيا بلا ارتياب

ونظم الشاعر هذه القصيدة على رثاء محمد غوث بعد موته وأثر عاطفة الشاعر يلوح للمتذوق فيما ساق الشاعر في نسيجها كما أنها تتسم بالدقة وحسن الأداء وتحقيق ما يهدف إليه من تأثير وإقناع، لقد نجح الشاعر في المرثية نجاحاً باهراً فالترابط الفكري والتو أم الفني ناهضان في القصيدة يدعمان وحدة موضوعها وتتضح دقة الشاعر في اختيار ألفاظه وتراكيبه وروعة الموامة بين ألفاظ وأفكاره. وقد حاول اقتناص الألفاظ الموصوية ببراعة الأساليب البلاغية كما هي تحشد المحاسن الفنية الكثيرة التي تدل على براعة الشاعر كما نرى فيما يلي:

ألا يا عين بكي كالسحاب أذاك النوم ملاك في المصاب

في هذا البيت (كالسحاب) تشبيه تمثيلي لأن بين الشاعر الهيئة الكاملة أي يا عيني تمطر كالغمام وفي الشطر الثاني (أذاك) استفهام إنكاري وأيضاً (النوم ملاك) تشبيه بليغ كأنه يقول مخاطباً للعين لا يمكن النوم في المصائب والحزن إلا البكاء الذي يكون كالمطر الغزير. وقوله:

فبكي ما استطعت اليوم حُزناً على الحرّ الحريق المستطاب

في هذا البيت يخاطب للعين ويقول بكّي في هذا اليوم في فراق فقيدي حسب استطاعتك وقدرتك وفي الشطر الثاني (على الحرّ الحريق المستطاب) استعارة والمراد منه الحزن الشديد الذي يحرق كل شيء. هذه الكلمات تدل على شدة حزن الشاعر وكذلك قوله:

لقد عزّ المزارُ فلستُ أشكوه إلى من ما تمسك بالإياب

يقول الشاعر في هذا البيت أنه لا يمكن أن يشكو من حبيبه الفقيد يا ليت أن يعود ولكن هذه الشكاية لا تنفع لأن هو ليس ملتزماً للعودة (تمسك بالإياب) أي غير متلزم بالعودة والرجوع إلى الدنيا بعد موته.

محمد غوث سلطان المعالي إمام الأصفياء بلا ارتياب

في هذا البيت بين صفات الفقيد وعوارفه (بلا ارتياب) أي دون الشك كلام سليس وعذب سهولة الإلفاظ والمعاني وقريب للأفهام.

فاظلمت الشرائع بالبؤس ولاحت قبل ذا مثل الشهاب

يذكر الشاعر في هذا البيت أن الشوارع التي كانت منورة بنور وضياء الفقيد أصبحت مظلمة بفراقه وحزنه (مثل الشهاب) تشبيه أي كانت منورة كانار والنجوم نار.

والمعنى الأدبي:

فقد رسم الشاعر صورة رائعة لرثاء محمد غوث الجشتي وأضفى إليه كثيراً من الصفات الطيبة في نحو قوله:

محمد غوث سلطان المعالي

إمام الأصفياء بلا ارتياب

وبينت هذه المرثية على رثاء محمد غوث الجشتي بعد موته وأثر عاطفة الشاعر يلوح للمتذوق فيما ساق الشاعر في نسيج مرثية. تتسم بالدقة وحسن الأداء وتحقيق ما يهدف إليه من تأثير وإقناع لقد نجح الشاعر في المرثية نجاحا باهرا فالترابط الفكري والتلاؤم الفني ناهضان في القصيدة يدعمان وحدة موضوعها وها أنا ألقي الضوء على الخصائص الفنية.

- دقة الشاعر في اختيار ألفاظه وتراكيبه
- روعة الملاءمة بين ألفاظه وأفكاره
- جمال اقتناص الألفاظ المؤصية.
- براعة الأساليب البلاغية.
- نحو قوله ألا يا عين بكى كالسحاب. على أسلوب التشبيه.
- لهذه المرثية المحاسن الفنية كثيرة وهذا يدل على براعة.

الصور البلاغية

قدم جار ومجرور في الشطر الأول من بين ثان نحو قوله (عليك بجاري) تفيد اختصاص:

تصوير الحزن الكبير لموت المرثي بكلمة نحو قوله (ألا إن عينا)

عوارث الفقيد والأسف عليه. ومن هذا يبرز علاقة الشاعر الوثيقة بالمرثي، لعل التكرار في الألفاظ والحروف الجارة ابرد ظاهرة ميزتها وهو في الواقع يرجع إلى نفسية الشاعر المفجوعة وكان هذا التكرار شديد الواقع في النفس عند إنشاد هذه المرثية.

أما المرثية الثانية فتشمل تسعة وعشرين بيتاً، رثى بها القاضي حميد الدين رئيس جمعية "انجمن حمايت إسلام"، الذي توفي في العاشر من مايو عام 1896م، ويشير الشاعر فيها إلى أن دموعه تجري في غزارة، وحاول أن يخفيها، غير أنه لم يقدر على ذلك، ثم يتحدث عن مدينته لاهور، إن لاهور لن تنساه أبداً، بما كان له من أعمال صالحة، حيث يقول:

لدمعي جريان إلى منتهى النحر لذكر قد بان حتى انقضى عمري

خبية سرى ترجمتها سواجمي فظاهر ما في الجسم دل على سري

دعي كلما أبكي على من فقدته بكا قصرت خنساء عنه على صخر

فوالله ما تنساه لاهور بلدة إذا ما وفى عن نصرها الأمر بالبر

له باقيات صالحات فما لنا نعد جناح الدين كسرا بلا جبر

عليه سلام الله في كل ليلة ورحمته دامت إلى مطلع الفجر

وديوان ضخم حققه وشرحه وعلقه الدكتور ذوالفقار علي رانا، حفل ديوانه بكثير من القصائد التي نظمها الشاعر مرتجلاً، مما يؤكد مقدرته الفائقة على النظم، وهناك بعض السمات والخصائص التي تجلعه ممتازاً، منها:

1. إقدامه على التضمين لشعراء آخرين، وإن لم يكن قد أكثر من هذا.
2. نظم في بحور عدة، وهذا يدل على قدرة النظم في جميع البحور الشعرية، والبحور. التي نظم فيها هي الوافر والكامل والطويل والبسيط والهزج والمتقارب.
3. أما اللغة والأسلوب في الديوان فهما في قمة الفصاحة والبلاغة والسهولة والعذوبة.
4. بالغ في البكاء والحزن في قصائد الرثاء ولاسيما في رثاء القاضي حميد الدين اللاهوري المذكور أعلاه، حيث يقول إن بكاءه عليه لم تبكه الخنساء في حياتها على صخر.
5. ذكر في الرثاء اسم المرثي كعادة شعراء المنطقة بالأردية والفارسية والعربية.
6. اقتبس من القرآن الكريم كما رأينا في قصيدة الرثاء التي نظمها إثر وفاة القاضي حميد الدين اللاهوري.

كما جاءت فيها الصور البلاغية من التشبيهات والمجاز والاستعارا والكنايات نحو:

ألا يا عين بكي كالغمام وأجري الدم منك على الدوام

في هذا البيت (ألا) حرف التنبيه كما فيه التشبيه في قوله كالغمام يخاطب الشاعر عينه ويأمره للبكاء وإجراء الدم عنها كالغمام الذي يمطر بمطر غزير.

على أهل البرية ناب خطب وأقبلت المصائب بالزحام

في هذا البيت يعبر عن المصائب التي أصابته وأهل البرية بالزحام والإزدحام أي جاءت جمعاً (ناب خطب) أي المصيبة التي أصيبته والبليات والأفات التي جاءت مزدحمة عنده بفراق الفقيد.

قد آبيضت عيون الناس حزناً مزجن دماً بعبرات سجام

لقد ابيضت عيون الشاعر والناس بفراقه الفقيد وحزنه بصورة موته فهذه العيون مزجن بالدم (عبرات) أي الدموع سجام أي المتواصل والمستمر هو يقول أن دموعهم تجري من عيونهم بالتواصل والترابط والتسلسل فهذه ألفاظ جيدة والتراكيب عذبة سهلة.

وسود وجه دهر فرط غمّ يرى فيها ظلام في ظلام

في هذا البيت المجاز اللغوي أن ليس للدهر وجه بل وجوه الناس اسودت بحزن وغم الفقيد بشدته ويرى إلى كل الطراف والجوانب (ظلام في ظلام) فيه تأكيد جاء كلام مؤكد الذي يدل على شدة الظلمة والحزن والغم.

- وتتسم الأفكار في المرثية بالقوة والعمق والوضوح والترتيب الدقيق وحسن التنسيق والتسلسل المنطقي.
- تتجلى فيها مقدرة الشاعر الفنية.
- تعد هذه المرثية أجمل تصوير وأدقه عن الصياغه الفكرية الذهنية والوجدانية.
- العاطفة: المرثية تجيش بالعاطفة القوية واستطاع الشاعر أن يلهب المشاعر وأن يذكي العواطف وأن يؤجج الأحاسيس و واسته مقداراته وبراعته الأدبية كما تضافرت فيها العواطف الصادقة فهي لا تخفى عن الناظر ملامحها من الود والحد لوالده.
- جمال البناء: فالشاعر في هذه المرثية لم تخنه قدرته الفنية على تجويد الوصف وحسن التأليف بين مفرداتها لهذا تراكيبه مترابطة قوية واضحة. لا تفك ولا تعقيد فيها ولا القواء يغلب عليها الإيجاز المخل.
- ملاءمة ألفاظ للمعاني: جاء بألفاظ وعاء لهذه المعاني تفيض رقة وعذوبة وسفافية والطافة والعبارات الرمينة والمنسجمة.
- الشاخة: الفرض منها هو الرثاء عن الأقارب.
- وفي الأسلوب والصور الأدبية.
- التصوير الأدبي: وهذه المرثية تنهض على التشبيه في نحو قوله: يا عين بكي كالغمام.... والمجاز والاستعارة والكنايات نحو قوله: الرزايا والسهام على السهام. والتجسيم والتشخيص إلى جانب الحقيقة والتقرير.
- الأفكار: اتسمت أفكار هذه المرثية الأساسية بالوضوح والترتيب والتسلسل وللأفكار كلها كما ترى مترابطة تتآزر جميعها للنهوض بالفرض الأصلي فالمرثية تتمتع بوحدة تربط بين أفكارها وأن تعددت أغراضها فأفكار الشاعر فطرية تجري على طبعه في اللين والتواضع.

قصيدة الشيخ ظفر أحمد العثماني[7] في رثاء زوجته:[8]

رثاء الشيخ ظفر أحمد العثماني زوجته بعدة قصائد جميلة ورائعة الأسلوب، حيث أظهر فيها شدة الحزن ولوعة الأسى وقوة العاطفة، واخترت إحدى قصائده التي قيلت في رثاء زوجته لدراسة فنية.
يرثي الشاعر في هذه القصيدة زوجته، غير أن الشعراء لم يكونوا يرثون زوجاتهم قبل ذلك، ولكنه لا يذكر اسم المرثية في قصيدته، كما لا يبين مشاعره الحقيقية فيها مثل حبه لها لأنه لا يناسب طبيعة الشيوخ في هذه المنطقة وإن كان ذلك لا يتنافى مع الإسلام، حيث ظل الرسول عليه الصلاة والسلام يذكر خديجة رضي الله عنها بعد وفاتها بخير طيلة حياته.
يستخدم الشاعر في هذه القصيدة التشبيهات والصور الخيالية بكثرة كما نرى في الأبيات الآتية:

أشكو إلى الله حزناً هاج أحزانا ولوعة أضرمت في القلب نيرانا

توجد استعارة تصريحية في "أضرمت في القلب نيرانا" حيث شبه الاعر ما أصابه من الحزن بالنيران، والجامع الإفساد والقضاء على ما يتصل به كل منها:

يا فرحة أقبلت حتى إذا اكتملت غابت وبدّلت الأفراح أحزانا

توجد استعارة مكنية في "فرحة"، شبه الفرحة بالإنسان المحبوب، وحذف المشبه به، وذكر شيئا من لوازمه وهو إقبال، و"بدّلت الأفراح أحزانا" فيه مجاز عقلي، لأنه أسند تبديل الأفراح إلى الفرحة، لأن الفرحة لا تبدّل ولا تغيّر، بل الله سبحانه وتعالى يغيّر ويبدّل.

راحت فراح بها ما كان من فرح في الدهر والخير عنا بعدها بانا

هنا جاء الشاعر بالجناس غير التام في "فراح" و"فـ"، والذين يبدو جميل هنا.

راحت وكنا وكان الشمل مجتمعاً ثم افترقنا كأن الجمع ما كانا

يوجد الطباق في "مجتمعا" و"افترقنا".

ضاءت بهجتها أرض بها دفنت إن الجميل حيثما كان

نجد صورة خيالية في "ضاءت بهجتها" حيث حاول الشاعر أن يثبت أن زوجته منحت الأرض ضوءاً حين دفنت فيها.

قد كنت في سكرة من حسن طلعتها ولا أرى مثلها في الناس إنسانا

جاء الشاعر هنا بتشبيه جميل لإبراز جمال وجه زوجتها، حيث شبه جمال حسن وجهها بكسرة الخمر، والجامع إذهاب العقل.

في غفلة من صروف الدهر فاجئة حتى فجعت بما لا مثله لانا

يوجد مجاز عقلي في "صروف الدهر" لأن الدهر لا يتصرف بل التصرف من الله سبحانه وتعالى، فالإسناد هنا مجازي.

يا ربة الحسن ما هذا الجفاء وقد كنا جميعاً كروح حل إنسانا

نجد الشاعر أنه أكثر في استخدام التشبيهات، حيث يوجد تشبيه مرسل مجمل في "كروح حل إنساناً".

قصيدة ميرك شاه الإندرابي[9] في رثاء حسين أحمد المدني:

أذاب القلب أنباء أتتنا بإبعاد الدواهي واغتمام

وإقلاق وإيلام وحزن وإفزاع وتحرير المنام

وإيعاش وإدهاش ويأس وإسهار قرين بالحمام

ألا يا عين بكي إذ رزئنا كريما سيداً رأس الأنام

إماماً هادياً قمراً منيراً مُزيعاً نوره ظُلم الظّلام

مُحيط بالعلي بحراً تجيجاً عظيماً بارعاً قيل العظامُ[10]

وتضمنت هذه القصيدة من الصور الجمالية والألوان البلاغية التي أسهمت بشكل واضح في تزيين على هذه اللوحة الشعرية حيث وفق الشاعر فيها من تسجيل إحساس ومشاعراً أحزانه بافتقاد أستاذه الذي ارتحل إلى جوار ربه فذهبت به كل السرور والبهجة فساء حال الشاعر وفيها استعارات نحو (أذاب القلب أنباء) ومن ألوان البديع التي استدعاها المقام وجاء بها الشاعر ومنها الطباق نحو (الظلم والنور) والجناس العلى والريع كما توجد فيها الأسئلة والاستفهامات والنداءات المكررة كلها تفيد اللهفة والتحير واستطاعت هذه الاستفهامات والنداءات أن تجسد القنوط واليأس نحو (ألا يا عين بكي).

كما تتضمن عدة الأفكار والمعاني فهي مكانة أستاذه وجهوده العلمية رحيله عن الحياة نظرات متأملة في تقلبات الحياة وعدم استقرارها وأن مصير الجمع إلى زوال كما أن الموت رحلة إلى الخلود والبقاء أن موته خسارة للجميع وفيها مناجات مزينة. اخترت عدة أبياتها لدراسة فنية فها هي فيما يلي:

أذاب القلب أنباء أتتنا بإبعاد الدواهي واغتمام

يقول الشاعر في هذا البيت أن الأخبار التي أتتنا ووصلت إلينا عن موت شيخنا حسين أحمد المدني أ أبت قلبنا بالحزن والألم وبنار الفراق والهجر كما أذاب قلوبنا بالمصائب والغم التي أصابتنا بموته فيها مجاز لغوي لأن النار تذيب الأشياء لا تذهب الأخبار في الحقيقة وهذه العلاقة التي تمنعنا أن نضع في المعنى الحقيقي.

وإقلاق وإيلام وحزنٌ وإفزاع وتحرير المنام

جاء الشاعر في هذا البيت بالمصادر التي تعبر عن القلق والحزن والألم كما يقول أن بعد موت الفقيد عيونه لا تنام ولا تحلم أي مرّت عن المنام تعبيرا جملية والكلمات سهلة عذوبة.

وإيعاش وإدهاش ويأس وإسهار قرينٌ بالحمام

ايضاً جاء بالمصادر تعبيراً كاملاً عن حزنه وغمه وميزه مصدر فهمي يدل على المعنى الدائمي لأنه لا يوجد فيها زمن من أزمنة ثلاثة فجميع الكلمات جملية وعذوبة سهلة.

ألا يا عين بكي إذ رزئنا كريماً سيداً رأس الأنام

حرف التنبيه (رزئنا) أي أصبنا بالمصائب وهذه الجملة (رزئنا) المعترضة ويصف الشاعر أوصاف فقيدة أنه كريم وسيد الأنام.

إماماً هادياً قمراً منيراً مزيعاً نوره ظلم الظلام

جاء أيضاً بالصفات العالية وشبه الشاعر فقيده بالقمر وهذا تشبيه بليغ جاءت بدون أدواته كما هو يقول أن نوره الذي ينور كل الدجى والظلمات فهذا كلام جيد ورائع وعذب وسليس.

- وتضمنت هذه الأبيات من الصور الجمالية والألوان البلاغية والبيانية التي أسهمت بشكل واضح في تزيين هذه اللوحة الشعرية حيث وفق الشاعر فيها من تسجيل أحاسيس ومشاعر أحزانه وآلامه بافتقاد أستاذي الذي ارتحل إلى جوار ربه فذهبت به كل السرور الشاعر والفرحة، والبهجة فساء حاله.
- كما فيها الاستعارت نحو قوله "أذاب القلب أنباء وأيضاً من ألوان البديع التي استدعاها المقام وجاء لها الشاعر لتؤدي مهمة رئيسية في تجميل وتزيين المرثية منها الطباق (نور وظلم) والجناس (العلى والرفيع) (ظلم الظلام) (الحزن)
- كما توجد فيه الأسئلة والاستفهامات والنداءات المكررة وكلها تفيد اللهفة والتحمير واستطاعت هذه الاستفهامات، والنداءات أن تجسد القنوط واليأس قوله: (ألا يا عين بكي) ألا يا موت رفقا.
- وهكذا تمكن الشاعر تصوير الآلام والحزن والهم والغم تصويراً حياً التي أصابته بافتقاد أستاذه أجاد الشاعر التعبير عن الأمة وأحزانه.
- المناسبة: مات أستاذ الشاعر محمد حسين أحمد المدني فحزن بفقده حزنا شديدا وكيف كانت وفاته خسارة كبيرة للعلم والعلماء.
- أفكار المرثية: تتضمن هذه المرثية عدة أفكار ومعان.
- مكانة أستاذه وجهوده العلمية.
- رحيله عن الحياة.
- نظرات متأملة في تقلبات الحياة وعدم استقرارها وأن مصير الجميع إلى زوال.
- أن موته خسارة للجميع.
- مناجاة حزينة يكشف فيها عن العديد من أعمال الفقيد وأنه بموته قد فقد الأستاذ.
- المرثية في جملتها طاقة قوية من عاطفة الحزن والألم والبكاء وتكشف عن تمرس الشاعر بالحياة وخبرته بها ومعرفته بتقلبها.
- الألفاظ والتراكيب واضحة وقوية مجلجلة ليس فيها الغموض ولا التنافر والعاطفة الصادقة.

قصيدة الشيخ محمد يوسف البنوري [11] في رثاء الشيخ أنور شاه الكشميري:

يتميز شعر الشيخ البنوري بكثرة الجناس، ويستمد من ثقافته الدينية كثيراً من الكلمات والمعاني، كما يطغى الأسلوب العلمي على قصائده، ويلجأ إلى البحور القصيرة، في هذه القصيدة أتى الشاعر بتشبيهات واستعارات ومجاز وطباق وغيرها بكثرة[12]:

العين ذارفة والقلب حيران والطير تشدو فتبدو منه أشجان

جاء باستعارة جميلة وهي استعارة مكنية في "القلب حيران"، حيث استعار (الحيرة) للقلب، وهي من لوازم الإنسان.

الشمس كاسفة والأرض مظلمة والمزن تبكي فسالت منه بلدان

استعارة مكنية في "المزن تبكي"، حيث شبه الشاعر بالإنسان، وحذف المشبه به، وذكر شيئاً من لوازمه وهو البكاء. كما يوجد مجاز مرسل في "فسالت منه بلدان"، وتوجد علاقة محلية لأن البلدان لا تسيل بل الماء يسيل فيها، وهذه الصورة تدل على الحزن البالغ لدى الشاعر لفقد مرثيه.

وفي السماء ضجيج بالعويل بدا حتى بكت منه أطلال وعمران

والاستعارة المكنية هنا في "بكت أطلال"، حيث شبه الشاعر الأطلال بالإنسان، وحذف المشبه به وذكر شيئاً من لوازمه وهو البكاء.

وللسحاب أزيز حين رعدته وللقدور لنا غلى وفوران

يوجد هنا مجاز مرسل في "للقدور لنا غلى وفوران"، حيث توجد علاقة محلية، لأن القدور لا تغلي بل الماء يغلي في القدور.

خطب ألم على الإسلام مكتنفاً تزلزلت منه أطواد وأركان

مجاز مرسل في "خطب ألم على الإسلام"، المراد هنا بـ "الإسلام" هو المسلمون، والعلاقة سببية، لأن المجاز المرسل كلمة استعملت في غير معناها الاصلي لعلاقة غير المشابهة مع قرينة مانعة من إرادة المعاني الأصلية.[13]

قضى الحياة إمام القوم مرجعهم شيخ الحديث فقيه النفس سفيان

يوجد تشبيه بليغ في "فقيه النفس سفيان"، لم تذكر فيه أداة الشبه ولا وجه الشبه.

شمس الورى فيلسوف الشرق قدوتهم رأس الخيار غنى النفس سلطان

تشبيه بليغ في "شمس الورى"، كما لم يذكر الشاعر هنا المشبه والمشبه به وأداة التشبيه ولا وجه الشبه، وجاء بتشبيه بليغ للدلالة على علم مرثيه الواسع ونوره الذي أضاء الأرض مثل الشمس.

شق الجبال وغاص البحر في لجج فشاع در وياقوت ومرجان

ائتلاف اللفظ مع اللفظ في "ياقوت ومرجان".

كانت يواقيته ذخراً لمعتبر وللرشاد أكاليل وتيجان

تشبيه بليغ في "كانت يواقيته ذخراً" ولم يشر الشاعر إلى المشبه والمشبه به، ولم يذكر وجه المشبه ولا أداة التشبيه في هذا البيت.

وفي الزمان شيوخ لا عداد لهم لكنه لعيون العلم إنسان

وتشبيه بليغ في "لكنه لعيون العلم إنسان"، ويسمى الجزء الذي يكون في وسط العين "إنسان"، لأنه مركز رؤية، وهكذا شبه مرثيه بإنسان العين.

من بالحديث ومغزى الفقه مطلع من للحقائق والأسرار صوان

الاستفهام للاستبعاد في "من بالحديث" وفي "من للحقائق".

وكل ثلم فإن الدهر يجبره وما لثلم محيض العلم جبران

مجاز مرسل في "الدهر يجبره"، لأن الدهر يجبر، بل الله سبحانه وتعالى يجبر.

لو لقبوا الأرض لم يوجد له شبه من مثله بصراء القوم عميان

استخدام الشاعر في هذا البيت الطباق في (بصراء) و(عميان)، نجد في هذه القصيدة أن الشاعر أتى بعدد من التشبيهات والاستعارات والمجاز والطباق، وأجاد استخدامها.

تبكيه جامعة الإسلام من قلق كما بكى لفراق الألف هيمان

استعارة مكنية في "تبكيه جامعة الإسلام"، حيث شبهها الشاعر بالإنسان، وحذف المشبه به، وذكر شيئاً من لوازمه وهو البكاء.

دع الفؤاد عن الدنيا وزينتها فصفوها كدر والوصل هجران

نجد الطباق في كل من (صفو) و(كدر)، و(الوصل) و(هجران).

واجعله يرتفع في الجنات عالية حتى تيسر إرضاء ورضوان[14]

يوجد ائتلاف اللفظ في "إرضاء ورضوان"، لأن أصلها واحد وهو "رضو"، وأكثر الشاعر في استخدام ائتلاف اللفظ وائتلاف المعنى.

قصيدة صوفي محمد ضياء الحق في رثاء القائد الأعظم محمد علي جناح

يقول الشيخ صوفي محمد ضياء الحق في رثاء القائد[15]:

وفي صادق قولا وفعلاً فعرف وفاؤه كالمسك فاحا

شبه الشاعر في هذا البيت وفاء قائدنا بالمسك هذا تشبيه بليغ وجميل بأنه صادق وذو وفاء في قوله وفعله وبين أوصافه.

رثا صوفي محمد علي جناح رحمه الله في هذه القصيدة حيث تتعلق برثاء الأشراف والزعماء من جملة أصناف الرثاء فها هي جميلة ورائعة الأسلوب، أظهر فيها شدة الحزن ولوعة الأسى وقوة العاطفة، لقد نجح الشاعر فيها نجاحا باهراً كما تتسم بالدقة وحسن الأداء والترابط الفكري فاخترت من هذه المرثية عدة أبياتها للدراسة فنية فيما يلي:

بعقوبتنا غراب البين صاحا أصاب الموت قائدنا الجناحا

لقد قدم الشاعر الجار والمجرور الذي يقيد معنى القصر والحصر و(غراب البين) الذي يأتي بخبر لاموت أي الغراب صاح وجاء بخبر موت قائدنا فأخبرنا أن قائدنا قد أصابته المنية.

رمى الحدثان قوم مسلمينا فلم يجدوا من القدر البراحا

فيها أيضاً المجاز اللغوي (الحدثان) أي الزمان والزمان لا يرمي بل أهله هناك علاقة تمنعنا أن نضعه في محل المعنى الحقيقي كما يقول الشاعر أنلا نجاح ولا لسبيل ولا فرار عن القدر والقضاء.

إذا الناعي نعاه لنا صباحا علا صوت الجميع بواصباحا

(الناعي) الذي يعطي خبر الموت إذانعاه أي إذا أخبرنا في الصباح عن موت فقيدنا فبكى كل الناس بصوت عالٍ وصاروا حزينا الكلمات والألفاظ في هذا البيت عذوبة وجميلة.

وما من مسلم في الدهر إلا عليه بقلبه بكى وناحا

يقول الشاعر إذا سمع الناس خبر موت قائدنا صاروا باكين على موته ولم يبق أحد ما بكا على موته وحزنه كما كلهم ناحوا نوحة.

وبنيت هذه المرثية على رثاء قائدنا القائد الأعظم محمد علي جناح ولذا تتعلق برثاء الأشراف والزعماء وفيها الترابط الفكري والتلاؤم الفني وأثر عاطفة الشاعر الصادقة تلوح للمتذوق فيها ساق الشاعر في نسيج مرثيته التي تتسم بالدقة وحسن الأداء لقد نجح الشاعر في في المرثة نجاحا باهراً كما احتشدت لها طاقته إلا بداية كما يبدو في "لها" طاقته إلا بداعية كما يبدوا في هذه المرثية أن بناءها الفني أن تمكن الشاعر من نواحي اللغة وبراعته في تشكيلها في قوالب فنية بارعة رائعة.

- دقة الشاعر في الألفاظ وتراكيبه.
- روعة الملاءمة بين ألفاظ وأفكاره.
- جمال اقتناص الألفاظ الموحية.
- براعة الأساليب البلاغية نحو قوله "كالمسك فاحاً هناك تشية من أساليب بلاغية فهذه ألوان بلاغية يدل على براعةالشاعر وتفوقه الأدبي.
- وحدة القافية في هذه المرثية.
- فالغرض الأصلي فيها هو الرثاء.
- استمت أفكار المرثية بالموضوع والترتيب والتسلسل فقد نهج نهجا سلياً.

كما أن الأسلوب إنما هو الصدى الحقيقي تقوى المشاعر والعواطف والانفعالات التي يعبر عنها وأبيات. هذه المرثية قد تضمنت أفكارا كثيرة متنوعة وعواطف متباينة متعدة تؤثر في النفوس تأثيراً بالغاً واستحوذت عليها بأكملها.

1. القيرواني، ابن رشيق: العمدة في صناعة الشعر ونقده، ط.1، القاهرة: 1344هـ، 147/2
2. أميل ناصف (الأستاذ): أروع ما قيل في الرثاء، ط.2، بيروت: دار الجيل، 1414هـ، ص5
3. أحمد إدريس (الدكتور): الأدب العربي في شبه القارة الهندية الباكستانية حتى نهاية القرن العشرين، إسلام آباد، 1994م، ص 203
4. البشاوري، طلاء محمد (القاضي): ديوان طلا محمد البشاوري، تحقيق وتقديم وشرح: أظهر، ظهور أحمد (الدكتور): المجمع العربي الباكستاني، لاهور، ص 137
5. هو الشيخ الكبير الفاضل أصغر علي الروحي اللاهوري رحمه الله، ولد الشيخ في سنة 1867م، توفي الشيخ في سنة 1953م ودفن في مقبرة آبائه في قريته ومسقط رأسه. أنظر: أحمد إدريس (الدكتور): الأدب العربي في شبه القارة حتى نهاية القرن العشرين، ص 386.
6. ذوالفقار علي، رانا: ديوان الشيخ أصغر علي الروحي، المجمع العربي الباكستاني، لاهور، باكستان، ص 88
7. هو العلامة المحقق الباحث الشيخ ظفر أحمد بن لطيف العثماني التهانوي، ولد في سنة 1310هـ بمدينة ديو بند. توفي الشيخ بمدينة كراتشي في سنة 1394هـ أنظر: الترمذي، عبدالشكور: تذكرة الظفر، وعبدالله، محمود محمد: اللغة العربية في باكستان، ص 205-207.
8. توفيت زوجته الأولى "عارفة خاتون" في 26 أكتوبر 1950م، وزوجته الثانية "حفصة بنت يحيى الصديقة" في 27 يوليو 1952م (عبدالله، محمود محمد: اللغة العربية في باكستان، ص 443)
9. هو الشيخ ميرك شاه بن السيد شاه مصطفى، ولد في قرية "ميرة محلة" بكشمير المحتلة في عام 1306هـ وينتهي نسبه إلى سيدنا الحسين بن علي رضي الله عنهما. توفي الشيخ بيوم الجمعة في 26 جمادي الثانية 1393هـ/ 27 يوليو 1973م بمدينة لاهور ودفن بها. أنظر: فيوض الرحمان (الدكتور): مشاهير علماء، 928/2-935.
10. الجريدة اليومية "الجمعية"، العدد الخاص بشيخ الإسلام حسين أحمد المدني، 24 جمادي الأولى 1405هـ/ 15 فبراير، 1985م، ص 276
11. هو السيد محمد يوسف بن محمد زكريا بن مير مزمل شاه ابن مير أحمد شاه بن مير موسى بن غلام حبيب بن رحمة الله بن عبدالأحد البنوري، ولد الشيخ في سنة 1908م في قرية "محابات آباد" من مديرية مردان. توفي الشيخ البنوري في سنة 1977م، أنظر: مختار محمد حبيب الله: القصائد البنورية، ص 37.
12. البنوري، الشيخ محمد يوسف: نفحة العنبر في حياة الشيخ أنور، ص 255-256
13. الجارم، علي ومصطفى أمين: البلاغة الواضحة، لندن: باتفاق خاص مع الناشر ماكيلان وشركاؤه دار المعارف، ص 110
14. البنوري، الشيخ محمد يوسف: نفحة العنبر في حياة الشيخ أنور، ص 256-259
15. بشرى أسماء: محمد ضياء الحق صوفي، ديوانه وخدماته، رسالة الماجستير، قسم اللغة العربية، جامعة بنجاب، لاهور، باكستان، 1995م، ص 159-160